تاريخ جحا ...

جحا التركي

للأستاذ كامل كيلاني

— ٣ —

الأستاذ نصر الدين

ولد الأستاذ نصر الدين — كما أسلفنا — في « سيوري حصار » إحدى بلاد الأناضول ، ومات في « آق شهر » (البلد الأبيض) ونشأ فلاحا ذكيا يؤثر أن يحطب بيده ويعيش من كد يمينه .

وكان سخي اليد كريم النفس لا يقصر في واجب ضيف ولا يرد عائدا قصد إلى داره من الغرباء والفقراء .

***

فإذا حذفنا أسماء البلدان فما ندري : أي الجحوين به ذلكم الوصف أكثر التصاقا ، وعلى أيهما كان أكثر انطباقا ، ولكن من يدري ؟ فإن قدرة الله تخلق من الشبيه أربعين ، كما تخلق من الشخوص الجحوية أربعين .

كان الأستاذ نصر الدين — فيما يقول مؤرخوه — أمة وحده : كان فيما يتمثله بعض مؤرخي الأتراك فيلسوفا حكيما يمزج الفكاهة بالجد ، ويعرف كيف يخاطب الناس على قدر عقولهم ، وكان آية من آيات الذكاء وخفة الروح .

وكثيرا ما تخللت نصائحه طرائف عالية من الدعابات الحلوة والنكات المستعذبة واللطائف المستملحة ، ولم يكن كما يتخيله العامة مهرجا ولا متبذلا ولا أبله ولا مخبولا ، ولا — كما توهموه — عاجزا عن التفريق بين الخير والشر .

وكيف يكون ذلك وقد شهد علماء الأناضول : أنه كان لهم في العلم إماما يقتدى به ويهتدى ، وعالما ثبتا ، وقطبا من أقطاب الحكمة والفلسفة .

قالوا :

ولا أدل على ذلك من ذيوع ترجمته وانتشار أخباره وطرائفه المبدعة في بلاد الدنيا كلها ، عصرا بعد عصر ، وجيلا بعد جيل حتى وصلت إلى أيدينا متجددة الروعة دون أن تبلى جدتها ، أو تخلق ديباجتها .

وكان يحلو له السياحة والتجوال مشيا على قدميه . ولم يعرف عنه ميل إلى الترف ، ولا نزوع إلى الخبث ، ولم تؤثر دعابته ونكاته في مكانته الرفيعة بين معاصريه ، ولم تقلل من احترام الأهلين له ، ومحبتهم إياه .

إلى هنا ينتهي الوصف الذي يصدق على الجحوين : الشيخ أبي النصين دجين بن ثابت ، والأستاذ نصر الدين أفندي . ثم ينفرد ثانيهما بما يأتي :

كان تاريخه الحربي والسياسي — فيما يقولون — حافلا بجلائل الأعمال . وقد ختم بسفارة رسمية سياسية في بلاد الكرد (كردستان) فنجح فيها أيما نجاح .

***

ويدل ما بقي في أيدينا من آثاره على أنه لقي من ضروب الامتحان ، وتعرض لأزمات كثيرة لقيها بثبات وثقة خليقين بأمثاله من كبار النفوس .

ومازال يعلو في المناصب ويسفل ، ويلقى من أسباب السخط والرضى — تبعاً لتقلب الأهواء — ما يلقاه أمثاله من الأحرار الصابرين .

وقد ولي القضاء في آق شهر (البلد الأبيض) وملحقاتها . وكان يخطب في « سيوري حصار » . وقد عرف عنه أنه كان

عقله ، فلا يبقى ما ندرك به كوننا وربنا ! ! ويعيش أكثرنا كما يعيشون الآن ، تضطرب بهم مجهولات الكون ومعلوماته كغرقى طافين على أكف الأمواج ، لا يعقلون شيئا ولا يؤمنون بالكون والنفس ولا بربهما ، وإنما يعيشون في ذهول وبلبلة وشك ، ثم يمضون إلى ظلمات القبور » .

تلك هي القضية وهي أشبه « بمعادلة رياضية » وهي عندي القضية الفكرية الأولى في الدين والعلم والفلسفة .

فهل ترانى أخطأت ؟

عبد المنعم خلوف

جريئاً لا يتهيب أن يدعو الأمراء والولاة والحكام إلى طاعة الله والتمسك بأهداب الدين ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وكان يؤم الناس في ولايات « أنقرة » و « بورصة » و « قونيه » وما إليها من البلدان وأقرأ ابن السلطان كتاب الهداية ووقفه على دقائقه وجلا له غوامضه .

ولن يؤخذ هذا الرجل الصالح بما فرط منه من زلات في جن نشاطه ومستهل فتوته . فقد أقلع عنها وتم له النسك بعد اكتمال عقله ورجولته وقد ختم حياته بالوعظ وتدريس علوم الدين .

وقد أهلته شجاعته وحكمته ودعابته ، وما تحلى به من مواهب وميزات باهرة ، وما حباه الله به من قدرة على اكتناه دقائق الفن والنفاذ إلى مغالق العلم ، وما ذاع بين معاصريه من شهرة مستفيضة بين علماء زمنه وحكماء عصره ، إلى الظفر بأسمى المناصب ، وأتاحت له التوغل في حضرة « تيمورلنك » والاتصال به . ومكنت له تلك الأسباب مجتمعة من النجاح فيما هدف له من تلطيف جوره وكف أذاه عن الناس وتخليصهم من كثير من مظالمه .

قالوا : وساعدته على ذلك بديهة حاضرة وكياسة نادرة ، ونكتة مستعذبة ودعابة محببة .

وإن مرتاد الأناضول ليدهشه ما يراه من اعتقاد الناس فيه ؛ فهو عند الأهلين : من أولياء الله المقربين . وهم يؤمنون بأن زيارة قبره تجلب البركة والخير العميم على زائريه . فإذا شك إنسان في شيء من هذا أصابه أذى أو مكروه جزاء جحوده ونكرانه .

وللأهلين في ذلك الباب طرائف كثيرة ، منها :

« أن مركبة مرت أمام قبره ، وعليها هودج ممدد (أعني : ذا أعمدة) . وكان يستقل الهودج أسرة فيها شاب لايدين بالخرافات . فلم يشأ أن يجري على عادة الأهلين الذين تفرض عليهم التقاليد أن يترجلوا قبل أن يبلغوا قبره ، وأن يقرأوا الفاتحة أمامه باسمين وإلا عرضوا أنفسهم لمساءة وشيكة ، وربما حلت بهم كارثة عاجلة لا قبل لهم بها ، ولا حيلة لهم في دفعها .

قالوا : وأصر الشاب على أن يستهين بهذا التقليد الصالح الذي جرت به العادة هناك . فماذا حدث ؟

لم يكد الهودج يسير خطوات قليلة حتى اصطدم فيما يزعمون بفرع شجرة ممدود ، فجفلت الخيل وقذفت بأفراد الأسرة على الأرض ، وتمزقت سجوف الهودج ورفارفه .

فلا غرو إذا ثبت اعتقاد الأهلين في بركة الشيخ وقال قائلهم مباهياً :

منذا الذي يجرؤ على احتقار شيخنا ، أو الاستخفاف به ، بعد اليوم ؟

وقد علق على هذه القصة بعض أفاضل الباحثين من الترك ، فقال :

« ولا ضير من أمثال هذا الاعتقاد ، فإن الاستنجاد بروحانية الأخيار أفضل وأجدى مما يرتكبه المنكرون الجاحدون من شرور وحماقات .

قالوا إن عالماً متفقهاً في دينه ، سأل زوجته : لماذا لم تكنس البيت؟ فقالت له « ذهبت إلى أمي اليوم ، ولم أعد إلا ساعة الغروب » فقال: « لقد مرت ساعتان على ذلك فما بالك لم تكنسيه؟ » فصاحت فيه متعجبة : كيف تقول هذا ؟ ألا تعلم أن الكنس يحرم متى جن الليل ؟ » فضرب الرجل كفا على كف وقال من أين لك هذا العلم أيتها البلهاء ؟ أتحبين أن تعلميني ما أدرسه للناس كل يوم في المسجد من شئون الحرام والحلال ؟ » فقالت له : « لا شأن لي بعلمك ، فكذلك أخبرتني أمي وجدتي ، وعمتي وخالتي ، وأختي وجارتي ، وعلى ذلك الرأي أجمع كل من عرفت »

فلما اشتدت اللجاجة بينهما قالت له الزوجة متبرمة : « اكنس أنت إذا شئت ما دمت لا ترى في ذلك حرجا »

فأمسك الشيخ بالمكنسة وراح يكنس هازئاً برأي صاحبته متحدياً إياها بين لحظة وأخرى . ولم يكد ينتهي من ذلك حتى لدغته عقرب فصاح مغوثاً يقول :

« لعله علم وترك »

لعلنا نتعلم من هذه القصة ما يجب على كل رجل من الأذعان لرأي المرأة — ولو كان باطلا وطاعته طاعة عمياء .

ومن عادة الأهلين السذج في « آق شهر » أن ينظموا الأشعار في أعراسهم بعد أن يذهبوا إلى قبر الأستاذ نصر الدين ، ثم يوجهوا الدعوة إليه ، وهذا نصها :

« أحضر شيوخك ، وأحضر من تحب من أصفيائك العلماء » .

وليس يجرؤ أحد منهم على مخالفة هذا التقليد : وعندهم :

أن الحياة الزوجية لن تزدهر بين العروسين ، ولن يباركها الله إذا غفلوا عن تنفيذ هذا التقليد .

ولا يقتصر المحتفلون على ذلكم ، بل يدعون حارس قبره ليكسب حفلتهم بهجة وحبورا بما يقصه عليهم من ماجه وطرائفه

حفيد نصر الدين

ومن طريف ما يروى أن بعض حفدته قدم إلى الآستانة مع أسرته ، فى عهد السلطان مراد الثالث ، فى القرن العاشر الهجرى (٩٨٢ إلى ١٠٠٣ هـ) ، ملتمساً من وزارة الأوقاف أن تقرر له إعانة شهرية يسيرة من المال تمكنه من شراء ما يتبلغ به من القوت . ولم يجد حفيد نصر الدين شيئاً يربط إليه دابته . ثم لم يلبث أن لمحت عيناه طبلا كبيراً أمام باب الوزارة ، يستخدمونه لتنظيم المواعيد ، وتوقيت الحضور والانصراف ، وما إلى ذلك مما تستخدم فيه الأجراس عادة . فشد صاحبنا دابته إلى ذلكم الطبل بعد أن ضاقت به الحيل فى الاهتداء إلى غيره .

وكان فى ساحة الوزارة — جمهرة من البغال التى تعدها الدولة — كل عام — للذهاب بما تحمله من مال ورجال إلى الحج . ولم تكد الدابة تستقر حتى ركلت الطبل برجلها — تعمدا أو اتفاقاً — فأحدثت ضجة وضوضاء . فأجفلت البغال وهربت من الذعر . وشاع الهرج والمرج . وانزعج ولاة الأمر ، وبحثوا عن مصدر الصخب ثم ما لبثوا أن اهتدوا إلى أن حفيد نصر الدين هو مصدر الضجة كلها .

وقد كانت تلكم الحادثة وحدها كافية للتعريف بنفسه ، فأغنتهم عن التثبت من بنوته ، بعد أن رأوا فى تصرفه ما يدل على أصالته ، وصحة نسبته .

تحقيقـــات

١ — قبر نصر الدين :

ولا بأس من وقفة قصيرة نستعرض فيها ما انتهى إليه بعض الباحثين فى تاريخ الأستاذ نصر الدين إذ يقول :

« ونحن بما انتهت إليه تحقيقاتنا العلمية فى بلاد الأناضول وقفنا على كتاب : « السياحة إلى قونية » الذى أهداه إلينا أحد الأفاضل إخواننا (ضيا بك) .

وباطلاعنا على هذه السياحة وجدنا أن للمرحوم قبرا فى مقبرة « آق شهر » مكتوبا على شاهدته هذه الجملة :

هذه التربة . المرحوم المغفور له المحتاج إلى رحمة ربه الغفور نصر الدين أفندى روحنا (إلى روحه) فاتحة ٣٨٦ .

٢ — تاريخ وفاته :

ثم يقول :

وقد استثار هذا التاريخ دهشتنا لأن نصر الدين لم يمت فى ذلك التاريخ ، واستدللنا على أنه محرف ، وأن الأرقام قد كتبت معكوسة ، وصحتها ٦٨٣ . وقد تبينت صحة ذلك التاريخ من التحقيق المحلى الذى قمت به لأن المرحوم من رجال السلطان أورخان . وقد حكمنا من الشواهد واللابسات أن ما وصلنا إليه من نتيجة هو الصواب لا ذلك الذى كتبوه على شاهدة قبره خطأ . وقد تبين لنا من ذلك الخطأ فى التاريخ المثبت على القبر ومن كتابة أرقامه أنها مقلوبة .

ومن عجائب الاتفاق وغرائب الأستاذ أن يقلب تاريخ وفاته على قبره أيضا ، وكأنما تعمد كاتبه أن يقلبه ليدل على أن النكتة لا تفارق صاحبنا حيا وميتا .

إلى أن يقول :

« وقد انتهت تحقيقاتنا إلى أنه كان — رحمه الله — قد ظهر تقريبا فى عهد السلطان أورخان ، وامتدت حياته إلى عصر السلطان « يلدرم بايزيد » أى « الصاعقة بايزيد » .

ومعنى هذا أنه عاش فى أوائل القرن السابع . وأنه عاش ستين عاما أو يزيد ، إلى أن توفى سنة ٦٨٣ هـ كما يدل على ذلك لوح القبر الذى دفن فيه » .

وقد قيست جريدة صدى الأجراس (جينقر اقلى ناتار) الكلمة التالية من كتاب تاريخ النكات (لطائف نويس) وقد ألفه فى جزءين عن لطائف نصر الدين ، قالت :

كان الأستاذ من رجال المرحوم السلطان يلدرم بايزيد .

٣ — صحة تيمور لنك :

فإذا عن لنا أن نترفق فى مناقشة أقوال هذا المحقق ، ونتفهم ما انتهت إليه تحقيقاته العلمية ، تعذر علينا أن نجاريه فيما انتهى إليه .

فإذا افترضنا أن التاريخ مقلوب — كما ذهب إلى ذلك صاحبنا وتابعه فى رأيه كل من أظفرنا الحظ بقراءة بحوثهم ، فكيف نعلل ما حدثنا به ذلكم الباحث نفسه وما حدثنا به جمهور المؤرخين من صحبته للباطش السفاح الطاغية تيمور لنك .

كيف نعلل ذلكم ، وقد ولد « تيمور لنك » بمدينة « كيش » — فيما تعلمون فى القرن الثامن ، إذا صح أن « نصر الدين » مات فى القرن السابع .

إذا صح أن تيمورلنك ولد عام ٧٣٧ هـ فيما يقول التاريخ وأن نصر الدين مات عام ٦٨٣ هـ فكيف التقيا ؟ وكيف ونصر الدين لم يدرك مولد الطاغية ، بله انتصاره على بايزيد الصاعقة الذى تم له — فيما تعلمون وأعلم — عام ٨٠٥ هـ ١٤٠٢ م بل كيف لقى « أورخان » وهو لم يل الإمارة إلا عام ٧٢٦ هـ ، أى بعد وفاة « نصر الدين » بثلاثة وأربعين عاما .

لقد مات « أورخان » عام ٧٦١ هـ ، ثم خلفه ابنه مراد الأول (من ٧٦١ - ٧٩٢ هـ) ثم خلفه بايزيد الأول (٧٩٢ — ٨٠٣ هـ) وانتهى أمره فى عام ٨٠٥ هـ .

كيف نعلل ذلكم كله وأخباره مستفيضة مع بايزيد وتيمورلنك !

قالوا : إن حجا بطل محاضراتنا ، سمع فقيها يتلو الآية هكذا « خر عليهم السقف من تحتهم » فانتفض حجا غاضبا ، وصرخ فيه متعجبا . « إذا فاتك النص يا هذا فلا يفوتنك الذوق ! كيف استقام فى ذهنك أن يسقط عليهم السقف من تحت ؟ قل من فوقهم لا أبالك ؟

إحدى اثنتين أيها السادة :

إما أن نأخذ بالتاريخ المقلوب ، كما أخذ ذلكم المحقق ، فننكر صلة نصر الدين ببايزيد بله تيمور لنك !

وإما أن نأخذ برواية من يثبتون لنا مؤكدين أنه صحب بايزيد كما صحب تيمورلنك من بعده ، فننكر صحة التاريخ المكتوب على القبر طردا وعكسا ، ونسقط رأى أولئكم المحققين أثباتا كانوا أم غير أثبات .

فإن كان لا بد من التشبث بالأرقام الثلاثة التى يتألف منها التاريخ المثبت على جدثه وهى ٣٦٨ ، فليس لنا مندوحة عن نقل رقم الثمانية من الطرف الأيمن إلى الطرف الأيسر ، أعنى : من رقم الآحاد إلى رقم المئات فتصبح حينئذ ٨٣٦ هـ . وهذا التاريخ — على أى حال — فى حدود الممكنات ، إذا استحال علينا الأخذ بالتاريخين السالفين طردا وعكسا . فإذا أبينا إلا الاسترسال فى تحوير الأرقام وتقليبها على كل وجوهها لم يبق أمامنا إلا تحوير واحد ، هو آخر ما يتبقى لمن يحاول له أن يتشبث بها ، لم يبق إلا تاريخ ٨٦٣ هـ ، وهو كما ترون : أبعد احتمالا من سابقه ، وإن لم يكن ممتنعا فى الاستحالة إمعان التاريخ المثبت على القبر مثبتا ومقلوبا ، هذا إذا تسمحنا فى عمره بأنه لم يعش إلا ستين عاما أو قريبا كما يقول القائلون .

فلو أنه عاش مائة عام مثلا لما استحال على الباحث أن يأخذ بهذا التاريخ . على أن خير الأمور الوسط ، والاعتدال ، كما يقولون ، هو : الحسنة بين السيئتين .

من بدائع ما يروى من الطرف فى هذا الباب أن متحدثا ممن وهبهم الله — إلى نعمة الغباء والغفلة — عجمة اللسان ، قال :

« خسن وخسين بنات معاوية بن عفان » .

فصاح فيه أحد السامعين متعجبا :

قل لى بأى خطأ فى هذه الجملة القصيرة أبدأ تصويبه :

فأول الأشياء هما : « حسن » و « حسين » وليسا « خسنا » ولا « خسينا » :

والثانى أنهما ليسا من النساء بل من الرجال .

والثالث أنهما ليسا جمعا بل مثنى .

والرابع أنهما ولدان لا بنتان ولا بنات .

والخامس أن أباهما على بن أبى طالب لا معاوية .

والسادس أن معاوية بن أبى سفيان لا ابن عفان .

والسابع أن ابن عفان هو عثمان لا معاويه »

وما أكثر ما يتمثل الباحث فى تاريخ حجا ، هذه الطرفة الرائعة كلما عرض لمناقشة الكثير من أقوال من تصدوا للحديث عنه ، فى أكثر المناسبات ، على اختلاف اللغات .

كامل كيلانى